رحلة إلى أرض العم سام (١)

الاثنين ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٨

لم تكن هذه رحلتي الأولى إلى أمريكا، فقد زرتُ بلاد العم سام لأول مرةٍ عام ١٩٨٢م عندما كنتُ طالبة في الجامعة برفقة شقيقتي التي فَضَّلت الدراسة في إحدى الجامعات الأمريكية، بينما لم تَرُق لي الحياة هناك، وكانت وجهتي الأولى مدينة لوس أنجلوس الساحلية وتحديدًا (بيفرلي هيلز) الشهيرة، وكان برفقتي رجلٌ إنجليزي "حارس شخصي" تجاوز الخمسين من عمره، وبمجرد دخولنا ذلك الحي الكبير والفخم شاهدنا جريمة قتل حدثت وقائعها في وضح النهار، وكانت ضحيتها امرأة مع ولديها، فكانت هذه الصدمة الأولى، ليقرِّر بعدها مرافقي أن نعود إلى انجلترا في نفس اليوم.!

فبالرغم من صدمتي وعدم تصديقي لِمَا حدث أمام عيني حاولتُ التأقلم، وحاولتُ أن أرى شيئًا مختلفًا في هذه المدينة التي تُعتَبر من أكبر المدن الأمريكية، فقد مكثتُ شهرًا أبحث عمَّا يمكن أن يغريني للبقاء في أرض الأحلام؛ ولكني لم أجد، فقرَّرتُ حزم حقائبي ومغادرة أمريكا نهائيًّا.

وبمرور سنواتٍ عديدة، وبعد أن كبر أولادي؛ وجدتُ نفسي مرةً أخرى في محاولةٍ جديدةٍ لتَقبُّل الثقافة الأمريكية، تلك الثقافة الطاغية على فِكْر الشباب وحالة الانبهار غير العادية واتخاذهم الأسلوب الأمريكي من مأكل وملبس وسلوكيات حياتية نمطًا مُفضَّلاً للحياة، حتى أصبحتْ بصمة الحياة الأمريكية واضحة دون وعي أو تقنين على كلِّ مَن حولي من الشباب، وللأسف إن ما يقلده شبابنا هو مظاهر الحياة الزنجية الأمريكية أو ما يُعرَف في أمريكا بـ"المجرمين" من ثَقبٍ للجسم والبنطلونات الممزَّقة و"الوسط النازل" والأكل بكميات كبيرة، والغريب أنها

أصبحت نمط حياة لكثيرٍ من الشباب خاصة في دولنا الخليجية، رغم أن الأمريكان من أصولٍ أفريقيةٍ ما زالوا يعانون من التمييز العنصري وأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، وحتى الخدعة الإعلامية التي تلعبها أمريكا الآن بإظهار رئيسها "أوباما" وهو من الأمريكان السود، ما هي إلَّا لتجميل صورة أمريكا أمام الرأي العام العالمي خاصةً دول العالم المتقدم!.

وبعد تفكيرٍ طويلٍ، حملتُ كلَّ الحقائق التي أعرفها عن المجتمع الأمريكي وأعايشها يوميًّا في مجتمعي الصغير بالسعودية، ومعها تلك الذكرى المؤلمة أو الانطباع الأَوَّلِي عن مجتمع الجريمة التي رأيتها في العام ١٩٨٢، وقرَّرتُ أنا وأبنائي أن يكون جزء من برنامج رحلتنا لصيف ٢٠٠٨ زيارة أمريكا حتى يقف أبنائي على الواقع الأمريكي بأعينهم ويكوِّنوا آراءهم وانطباعاتهم الذاتية، وبما يساعد مناقشاتنا بعد ذلك على أساسٍ من الواقع.

وقبل أن ننطلق إلى أمريكا كانت لنا جولة قصيرة في أوربا بمتاحفها وثقافتها ونظافة مُدُنها وشوارعها وهدوئها، ورُقي تعامل شعوبها وتمسكهم بالقِيَم الأخلاقية والإنسانية من صدقٍ وأمانةٍ ولطفٍ، وكنا سعداء بهذا التمازج بين الواقع البريطاني والإعلام المرئي، فلم يكن هناك أي تناقض بين ما نعايش وما نرى، ناهيك عن حرية التعبير بمعناها الحقيقي والشامل لحرية العقيدة والسياسة والفكر وكذلك للخطوط الفاصلة والواضحة بين الممنوع والمسموح، فاحترام الفرد كقيمةٍ هي سِمَّة المجتمع الأوربي وخاصة البريطاني.

انتهت الفترة الزمنية المُحدَّدة لزيارة بريطانيا وِفْقَ البرنامج، صليتُ ليلة السفر وشعرتُ برهبةٍ شديدةٍ، ودعوتُ الله أن يجعل لنا ما فيه الخير من أمر هذه الرحلة، ولكن ظلَّ حال "القبض" ملازمًا لي..

وللحديث بقية ...

رحلة إلى أرض العم سام (٢)

معاناةٌ من نوعٍ آخرٍ

الاثنين ١ ديسمبر ٢٠٠٨

بعد انتهاء البرنامج المخصص لزيارة بريطانيا، كانت وجهتنا إلى أمريكا، حيث لا يوجد VIP في صالة المطار بحسب ما هو متعارف عليه في كلِّ مطارات العالم تقريبًا، فبالرغم أن في بريطانيا الكلُّ سواسية في الحياة اليومية ولكن في المطارات البريطانية هناك صالة VIP للمعاملات الرسمية؛ عكس أمريكا تمامًا حيث الدولار هو سيد الموقف ولغته هي اللغة الوحيدة التي تجعل من الشخص VIP أم لا !.

في مطار أورلاندو كانت بداية المعاناة وتفسير حال "القبض" الذي لازمني منذ بدأت الرحلة إلى أمريكا، معاملة العرب أكثر من سيئة؛ وإذا كنتَ خليجيًّا فالمعاملة أشدُّ غلظة، تتكرَّر الأسئلة والاستجوابات والتحقير، فإذا أدركوا عدم إتقانك للغة الإنجليزية كالوا ما شاءوا من السبِّ والشتائم، والحمد لله الذي علَّمنا لغة قوم فأَمِنا مكرهم.. فبعد انتظار سبعة ساعات في صالة المطار وبعد تدخُّل طاقم الطائرة البريطانية خرجنا من المطار شاكرين الله على السلامة، رغم الإنهاك والإعياء الذي كنا نعانيه نتيجة لساعات سفرٍ طويلة تجاوزت في مجملها نحو ١٣ ساعة.

انتهى الفصل الأول من الرحلة، لنبدأ رحلةً من نوعٍ جديدٍ، فكلُّ مَن يعرف أو حتى يخمِّن أنك خليجي يحاول استنزاف أكبر قدرٍ ممكنٍ من نقودك، وبما أنني أردتُها رحلة سياحية عادية وأن أعيش الواقع بكلِّ تفاصيله، وليست رحلة استنزاف

وزيارة للمحلات ذات الواجهات البرَّاقة ، كان عليَّ أن أتحمل كلَّ ما في هذا الواقع وأتحمَّل مفاجآته؛ أو بالأحرى صدماته.

بدأت رحلة العذاب مع شعبٍ جاهلٍ لا يعرف ما يدور حوله، لا يعرف الخليج إلَّا إذا ذُكِرَت العراق، ثقافته الوحيدة هي "التسلية" أو كما يُعرَف بثقافة البلاستيك، فكلُّ ما يحيط بك غير حقيقي؛ بلاستيك يتحرك هنا وهناك، لا يعرفون معنىً للسياحة وصناعة السياحة أو معاملة السُّياح بأي شكلٍ من الأشكال، أو حتى المعاملات الآدمية البسيطة، القبحُ يسيطر على كلِّ شيءٍ حولك، مناظر مقززة، أجسام عارية، أرتال من اللحم تتحرك دون ورعٍ، إباحية وفجور بشكلٍ اعتيادي، من المألوف أن ترى في الشارع الشباب والشابات النساء والرجال الكل يرتدي الشورت الضيق والتي شيرت الواسعة بغض النظر عن الأفخاذ المتدلية هنا والأذرع المتساقطة هناك، ومن خلال هذه المناظر بدأتُ أفسِّر ما عليه حال أولادنا وبناتنا في السعودية والخليج عامةً من بدانةٍ وتدهورٍ صحيٍّ، فإذا كانت ثقافتهم وأُسوتهم مُستَقاة من شخصيات لا تعرف إلَّا الحياة البوهيمية والسَّفه الترفيهي بالتأكيد أن هذا سيكون حالهم ولا ريب.

الحياة في شوارع "نيو أورلاندو" أشبه بالسوق المفتوح كلُّ شيءٍ فيه مباحٌ ومتاحٌ، ثقافة الوجبات السريعة والكميات والأحجام الكبيرة هي المسيطرة، هذه المطاعم التي تستحق بكلِّ جدارةٍ لقب "مستنقع المخلفات" فالقاسم المشترك الأعظم هو الدهون ومُكسِّبات الطعم والكميات الكبيرة، وكفى بهذه الخلطة تدميرًا لأصلب معدة!.

رحلة إلى أرض العم سام (٣)

إعلام موجَّه

الاثنين ٨ ديسمبر ٢٠٠٨

تناولنا في المقال السابق النمط الغذائي السيئ للشعب الأمريكي، وأعتقد أن هذه النوعية من الطعام والتي يلتهمون منها كميات خرافية؛ غيَّرت جيناتهم الطبيعية وعملت فيهم عمل شرائح التحوُّل التي نراها في الأفلام الأمريكية، هيئات وحشية في أجسامٍ بشريةٍ تمامًا كما في أفلام الخيال العلمي...

والحديث عن الإعلام يصل بنا إلى مربط الفرس، ففي أمريكا المواطن يتعامل مع إعلامٍ لا يرهقه بمشاكل العالم الخارجي ولا الحروب، أو يؤذيه بمناظر الجياع في الأرض أو بحالات الأوبئة والفيضانات، فهو مُغيَّب تمامًا عن العالم الخارجي باستثناء تلك الأخبار اليسيرة التي يكون لأمريكا مساهمة في صنعها وبأسلوب هامشي جدًّا.

ومن جهةٍ أخرى يُكمل الإعلام لعبته في صناعة فكر وثقافة المواطن الأمريكي فيقدِّم له كلَّ ما يثير شهواته في أي وقتٍ من الليل أو النهار - عكس أوروبا التي يحرص إعلامها على الرقابة الأسرية في المشاهدة وبث البرامج أو الأفلام -، ولا غرابة بعد ذلك إن وجدتَ التحرش يحيط بك في كلِّ مكانٍ وبمختلف الصور، وأعلى معدلات الانتهاك والاغتصاب هي في أمريكا.

ويستكمل الإعلام مثلث الثقافة الأمريكية بالمال، الذي به يكتمل مثلث التحوُّل اللاإنساني "الجنس والمال والنفوذ" فهم أناس يعيشون بالمال ومن أجل المال وللمال. الدولار هو محور الدائرة الكونية لديهم، ومهما كان مستوى الدخل فلابد

أن تعيش برفاهيةٍ وتلبِّي كلَّ الاحتياجات من شهوات وترفيه يوفرها نظام البنوك التي تُقرِض بالربا، فالطفل الفقير لديه هناك كلَّ شيءٍ؛ ببساطة لأنه يملك بطاقات ائتمانية وأهله غائبين عنه طيلة ٢٤ ساعة.

الثلاجات مليئة بالطعام الفائض عن الحاجة وفي المقابل مزيدٌ من المرضى النفسيين والجسديين، وهو النهج الذي اعتقد أننا بدأنا نسير على الخطوات نفسها.

وللحديث بقية...

رحلة إلى أرض العم سام (٤)

حُرِّية مُقنَّنة

الاثنين ١٥ ديسمبر ٢٠٠٨

الحُرِّية الأمريكية ليست هي تلك الحُرِّية المُطلقة المُتخيَّلة لدى البعض، فأنت في أمريكا مُراقَب من كلِّ مَن حولك، في بيتك وهاتفك وسيارتك وتحرُّكاتك وسكناتك وإيميلاتك، لا خصوصية فردية، فالمعلومات لابد أن تتوفر للأجهزة المعنية مهما صغُرت أو كبُرت فهي مشاع.

أعتبر أن المواطن الأمريكي إنسان على هامش الحياة، يجسِّد حالته الفيلم الكرتوني "Wally" الذي يمثِّل حياة أناس هربوا من قنبلةٍ ذريةٍ فأخذتهم غواصةٌ إلى عالمٍ آخرٍ في مكانٍ ما من الكون وظلَّ الترابط بينهم عن طريق أجهزة الكمبيوتر ولكن كلُّ واحدٍ منهم يعيش في معزلٍ عن الآخرين، فالشعب الأمريكي مُبرمَج جسديًّا وعقليًّا وليس لديهم أدنى اعتراض، منشغلين في حياتهم، كلُّ همهم في هذه الحياة الدنيا الحصول على المال فيعملون ويعملون لينصرف هذا المال بعد ذلك في الترفيه والتسلية، وأصبح كثيرٌ مِنَّا ينزلق إلى الهُوَّة نفسها، فهو الإعلام ولا شيء إلَّا الإعلام، خصوصًا بعد أن أصبحتْ أجهزة استقبالنا الفكرية والوجدانية مُوجَّهة لكلِّ ترددٍ أمريكيٍّ تستقبله بوضوحٍ لا مثيل له، والكارثة أن أجهزتنا أصابها العطب فلم تعد تستقبل أو تقلب بحثًا عن أية قنوات أخرى تحمل فكرًا مغايرًا، يُصدِّرون لنا البرامج الحوارية التي تصحبها دعاية وعناوين برَّاقة لمناقشة المشكلات والفضفضة التي تحوَّلت إلى كشف الستر حتى ما بين العبد وربه، ويقدمونها لنا على أنها أيقونات إعلامية مقدسة، في حين أن هؤلاء الذين تنقل لنا

تلفزيوناتنا العربية برامجهم على أنهم مُصلحي هذا العصر هم مُلاحَقون قانونيًّا وقضائيًّا في أمريكا وتُعلِّق فضائحهم الجرائد الشعبية يوميًّا.

لا ألوم بعد ذلك شابًّا من شبابنا أو أيًّا من فتياتنا وهي تقلِّد النموذج الأمريكي طالما أن قنواتنا العربية تدفع الملايين لتروِّج لهذه البرامج وتنقل لنا الإعلام الأمريكي ليبث سمومه اللاواقعية في بلادنا على طبقٍ من فضةٍ، في خارطةٍ إعلاميةٍ أمريكيةٍ مُحكَمة الصُّنع إلَّا مَن رحم ربي ووعى لما يحثه عليه دينه، ونحن في تقليدنا لا نقلِّد سوى ما ينقله لنا الإعلام من إبهارٍ لتلك الحياة الزائفة، إعلام لا ينقل همجية وقذارة الشعب الأمريكي ولكنه إعلام التغييب، يغيِّبنا عن الحقيقة بوهم الممثل الأمريكي وحياة الترف الأمريكي، يريدون أن يبيعونا ما ليس لديهم من ثقافةٍ وحريةٍ وديمقراطيةٍ وخدمات وبنية تحتية، في حين أن الإنسان هناك لا قيمة له إلَّا إذا كانت محفظته مُتخَمة بالدولارات والبطاقات الائتمانية.

وللحديث بقية...

رحلة إلى أرض العم سام (٥)

لا أثر لعرب أمريكا

الاثنين ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٨

بدأ تأثير المُنغِّصات السابقة على أفراد رحلتنا جميعًا، لدرجة أن ابني الصغير طالبني بالعودة إلى بريطانيا أو أي مكانٍ آخرٍ في العالم غير أمريكا، طفح بنا الكيل من التقزُّز الذي تعجُّ به الحياة الأمريكية، وزاد الحنين لأي شيءٍ يحمل الرائحة العربية، فوصلنا إلى قريةٍ عالميةٍ مُصغَّرة داخل مدينة ديزني تمثِّل هذه القرية دول العالم كلَّه بما يميزه من مباني أو أطعمة أو تراث، وفي القرية لا يتم تعريف العرب إلَّا من خلال "المغرب" وحتى هذه لا يوجد داخلها أي شيءٍ من المغرب، حيث يوجد ركنٌ صغيرٌ وليس مبنى كسائر المباني الأخرى، وداخل هذا الركن تجد مُجسَّمات للجِمال باعتبار أن الجمل الرمز الأوحد للعرب، ويتبعه الرقص الشرقي والصاجات والعود!! هذه الرموز هي التي تعبِّر عن الثقافة والحضارة العربية الإسلامية في أورلاندو.

حاولنا أن نجد أي ملمحٍ عربيٍّ أو إسلاميٍّ فلم نجد سوى أناس ضاعت هويتهم، فلا هم أمريكان ولا هم عرب.

واختتمتُ رحلتي إلى أورلاندو بحالةٍ من الاشمئزاز والتفكُّر في ذات الوقت فيما رأيته في رحلتي التي كشفت عورات أمريكا، بلد لا يوجد فيها شيءٌ من المحلية ولا سِمة تصبغها وتميِّزها عن أي مكانٍ آخرٍ، وجوه مسطحة لا تكاد تتعرف إليها حتى تنساها، فأورلاندو بلد سياحي؛ أو بمعنى آخر محطة عبور، ولكن أهلها لا يعرفون عن السياحة شيئًا ولا يجيدون فنون التعامل السياحي، كلُّ مَن فيه يعيش

بشكلٍ مؤقتٍ، ولا يعرفون بعضهم البعض وليست لديهم حتى نية التعارف، خليطٌ من شعوب وقبائل فقيرة تشكِّل موجةً جديدةً لعبيدٍ من نوعٍ آخرٍ، وبأسلوبٍ جديدٍ، حيث المعاشات قليلة جدًّا وعمل شاق مقابل التصريح لهم بدخول "أمريكا".

كيف لي بعد ذلك أن أحترم وأقدِّس ثقافةً تتعارض في جوهرها وكلِّ صورها ومظاهرها مع ديننا الحنيف بكلِّ جوانبه، شعبٌ بلا تراث أو حضارة أو دين.. وأنا لا أنتقد الشعب الأمريكي فهو حُرٌّ فيما يرتضيه لنفسه من حياةٍ، ولكن كلمتي إلى المجتمع السعودي بشبابه وشاباته ورجاله ونسائه، فالدِّين حياة والدِّين المعاملة، وليس شعارات، ممارستنا الحقيقية للدين هي المناعة التي نواجه بها العالم ونُعلِّم باقي الأمم كيف يكون الإنسان إنسانًا مُكرَّمًا كما أراد له الله سبحانه وتعالى {**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**}(١). فالكرامة الإنسانية ليست بقيادة المرأة للسيارة، ولا بممارسة الحريات الشخصية بدون حدودٍ أو ضوابطٍ، حريتي التي تنتهي عند بداية حرية الآخر، ففي مفهوم الثقافة الأمريكية لا توجد الرحمة أو الاحترام، وكلمة "الأنا" طاغية عندهم بشدةٍ حتى المؤسسات الخيرية يذهب ثلاثة أرباع ريعها للمستثمرين والمؤسسين؛ لذلك فإن الجشع يطال حتى الأعمال الخيرية هناك.

وللأسف إن مثل هذه المفاهيم والانبهار بأمريكا تتغلغل في مجتمعنا كالسرطان خاصة في أبناء الطبقات الميسورة الذين هم عُرضة للغرق في بحر عولمتها بشكلٍ أسرع من غيرهم.

ولأن لكلِّ شيءٍ صدى، فصدى التأثير الإعلامي أصبح واضحًا ثقافيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، ففي الوقت الذي لا يمكن فيه إنكار التقدُّم العلمي والطبي والبحثي والتكنولوجي المذهل، والذي لا نجد له أي تصديرٍ لدول العالم الآخر، نجدها دولة مُصدِّرة للآفات الاجتماعية، وكما هو معلوم قدسيتهم للعمل ولكن ليس كقيمةٍ وإعمارٍ للأرض ولكن العمل كمَصدر للمال وتكريس للحياة المادية، أطفالهم مُرفَّهين لا يعرفون إلَّا الأخذ، مراهقيهم متمردين على كلِّ شيءٍ في الحياة.

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٠

كيف نحن كشعبٍ عربيٍّ مسلمٍ تَشرَّف بهبوط الوحي الإلهي بأرضه ننزلق إلى هذا التقليد الأعمى لمجتمعٍ لا يُمثِّل أي صنفٍ من الديمقراطية أو الحرية الإنسانية واحترام الإنسان كقيمةٍ؟

وللحديث بقية.....

رحلة إلى أرض العم سام (٦)

التفاحة الكبيرة

الاثنين ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٨

حاولتُ نفض ما علق من أوساخ أورلاندو من ذاكرتي، ذلك البلد الحزين الكئيب المُنفلِت والمُتخلِّف بذات الوقت، وكلُّ هذا في كفةٍ؛ وكفة الميزان الربَّاني شيءٌ آخرٌ، أورلاندو تعاني الحرارة طوال النهار، والصواعق والأعاصير طوال الليل، لدرجة أن الصاعقة تنزل من السماء إلى الأرض فتُبيد ما تحتها في مشهدٍ مُرعِبٍ وغاضبٍ.. ولكني متفائلة بمحطتنا التالية في برنامج الرحلة، وكم كنتُ أُمَنِّي نفسي بزيارة نيويورك منذ حوالي ٣٠ عامًا، مدينة المال والبورصات والثقافة والمتاحف والمطاعم الفخمة والرفاهية بكلِّ معناها، الرفاهية العقلية والاقتصادية والفنية تتمثَّل في نيويورك "التفاحة الكبيرة". ولكن في الطريق إلى نيويورك حيث لا صواعق ولا رعد اضطررنا أن ندور ساعتين في الهواء حول نيويورك لأمورٍ أمنيةٍ وحاولتُ طيلة الساعتين أن أرى تمثال الحرية ولكن هيهات، فالحفاظ على رمز الحرية أصبح أهمّ لديهم من الحفاظ على الحرية ذاتها.

هبطت الطائرة أخيرًا إلى مطار جون كيندي ذي الشهرة الأكبر بين مطارات العالم، حيث الانضباط والالتزام وممنوع التصوير أو استخدام الجوالات، ويبدو أن المطار الأشهر لم تمسسه يد العناية قرابة ٣٠ عامًا، فالصالات سيئة والواجهة كلها أجنبية؛ فلا تجد أمريكيًا واحدًا يقدِّم لك خدمات المطار من تفتيشٍ وتوثيقٍ وخلافه.

خارج صالات المطار الذي تحجب فيه عن أي أحد يقدِّم لك مساعدة، تبهرك ناطحات السحاب التي تجعلك طوال الوقت رافعًا رأسك مشدوهًا أمام الضخامة العمرانية، ولكن سرعان ما تجذبك رائحة الطعام التي تفوح في كلِّ شبرٍ حولك إلى أسفل ظنًّا منك أنك دخلت أحد المطاعم خطأ في غمرة تحليقك بين السحاب، ولكن الحقيقة أن كلَّ مخرجات المطاعم تُصرَف في الشوارع دون استئذان.

هوليود تحكم أمريكا وليس العكس، هوليود هي التي تخطِّط للسياسة الأمريكية، وهذه إحدى أهم اعتبارات الحياة في نيويورك، الكلُّ يعيش أسطورة نجوم هوليود، الإعلام الفني مُكرَّس لمتابعتهم وتسليط الضوء على كلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ في حياتهم، وكلُّ هذا يتم بثه للجمهور على أنه الحياة كما يجب أن تكون، ولتحقيق هذا الحلم يعمل البسطاء ٢٠ ساعة يوميًّا ليستطيعوا أن يوفروا أكبر قدرٍ ممكنٍ من المال ليعيشوا حياة هوليود السعيدة المُترَفة وما لا يستطيعون الوفاء به، البنوك جاهزة للإقراض وإصدار البطاقات الائتمانية، المهم رفاهية المواطن بغض النظر عن مديونياته!!... ولكن النتيجة الأخرى والأعمق لهذه الكارثة السينمائية هي مجموع الأمراض النفسية التي يعاني منها الجميع صغيرهم وكبيرهم بسبب الازدواجية والتناقض بين الرغبة والمستطاع؛ لذلك يعملون ويعملون، وما تبقَّى لديهم من وقتٍ يقضونه في صخبٍ يُغيِّبهم عن مواجهة الحقيقة.

انتهت الرحلة أخيرًا... وأكاد أجزم أن كلَّ مَن في الرحلة أفاق من كابوس "أرض الأوهام"؛ لأني كنت أعاني معهم من الهوس بالحلم الأمريكي من تفكيرٍ وحريةٍ وأسلوب معيشة وانفتاح وحرية رأي إلى آخر هذه القائمة الطويلة التي تغذيها الأفلام والبرامج الأمريكية، كنتُ أعيش مع أولادي طوال الوقت في ظل هذا الحلم الأمريكي كما يصوِّره الإعلام بكلِّ تفاصيله، حتى العنف والسيارات وأسلوب الحياة والهالة المحيطة بالعالم الأمريكي الذي فرضته ثقافته الخيالية؛ لأنها لا تَمُتَّ للواقع بِصِلةٍ.

وللرحلة عبرة ختامية...

رحلة إلى أرض العم سام (٧)

تجربة لن أعيدها

الاثنين ٥ يناير ٢٠٠٩

بالنسبة لي لم تكن مجرد رحلة، فهي عبرة لن أنساها، ورحلة لن أعيدها، وتجربة لن أستغني عنها.

لن أنساها؛ لأنها محور تحوُّل في حياتي وحياة أولادي.

رحلتي إلى أمريكا تجربة لن أعيدها مرة أخرى، فبعد أن كنت أتوقع من خلال الرحلة أن أرى عالمًا مثاليًّا بما يحمله من صدقٍ وقِيَمٍ وحرية رأي وديمقراطيةٍ وخدمات وبنيةٍ تحتيةٍ وكلِّ ما يتعلق بالعالم الأول، تبدَّد هذا الحلم ليصبح مجرد وهم كنا نعيشه يوميًّا، وكذبة تردَّدت كثيرًا على مسامعنا وردَّدناها لدرجة أننا صدقناها، كلُّ ما تَمثَّل لنا في الإعلام من أفلام ومسلسلات وبرامج لم تكن تجميلاً للواقع ولكن زيفًا وكذبًا صدقوه هم أولاً وجعلوا منه كذبةً عالميةً يمارسونها على الشعوب الأخرى، فهي حلم لا يَمُتَّ للواقع بِصِلةٍ.

ولن أستغني عن هذه التجربة؛ لأنها ستكون بلا شك مرجعًا لي ولأولادي للردِّ على كلِّ مَن يقول لي أو يُفنِّد محاسن أمريكا أو يستحضر النموذج الأمريكي كمثالٍ للديمقراطية والقوة الأولى والعالم الأول، فأستطيع من واقع التجربة أن أقول له: "أمريكا ليست الحلم، وليست العالم الأول" فالعالم الأول هو الذي يضمُّ دولاً مُصنِّعةً للأخلاقيات الإنسانية والقِيَم الرفيعة، العالم الذي يُعنَى بالبنية التحتية لمنشآته وخدماته، العالم الذي يُعنَى بالنظافة والحضارة، ويُعنَى بالإنسان كقيمةٍ

تُسخَّر لها كلَّ الطاقات، أما الصناعة المادية التي تتبناها أمريكا فلم تصنع يومًا رجالاً أو حكومات.

بعد هذه الرحلة وجدتُ تفسيرًا منطقيًّا لرفض الغرب مُمثَّلاً في أوروبا للنمط الأمريكي، يمكن القول إن الشعوب الأوربية هي الشعوب المُتحضِّرة والنموذج الأمثل للعالم الأول، أما ثقافة القُبح التي تُصدِّرها لنا أمريكا وتحاصرنا بها فهي ليست حضارة ولا بناءً إنسانيًّا..

وأخيرًا.. أقول لكلِّ مَن يقرأ هذا المقال أو يستطيع التوقف قليلاً مع نفسه أن ينظر مليًّا لحقيقة الموقف، فالمشكلة ليست في الإسلام، ولكن المشكلة في تبعية المسلمين لنماذج غريبة عنَّا وعن ما جاء به ديننا، المشكلة في نظرتنا الدونية لأنفسنا والتي زرعها فينا الاحتلال ومازلنا نعاني منها بتزايدٍ يصل إلى حدِّ الاختناق.

وأقول لشبابنا وكهولنا ونسائنا ورجال الأعمال ومجتمعنا: كفى تقليدًا أعمى لأمريكا ولا أقول الغرب؛ لأن أمريكا ليست هي الغرب، ارجعوا إلى الثقافة المحمدية والحضارة الإسلامية وديننا الحنيف الذي هو لكلِّ عصرٍ وزمانٍ ومكانٍ، لحريتنا التي أعطانا إياها المولى سبحانه لنستعملها في مقاصدها الطبيعية، ونترك الحريات التي فُرِضَت علينا.

ليس هذا رأيي الفردي ولكن انطباع كلَّ مَن كان في الرحلة التي كانت مثار نقاشات وحوارات بيننا بدءً من أصغر أبنائي ١٠ سنوات وحتى أكبرهم، خلصنا بقناعة الرؤية الواقعية أنها عالمٌ مخيفٌ بكلِّ معنى الكلمة، ثقافة تشوِّهنا نفسيًّا بتغريبنا عن أصولنا وديننا وقِيَمنا وتُباعِد بيننا وبين كلِّ مَن حولنا في المحيط الأصغر فالأكبر، وتشوِّهنا جسديًّا ببثِّ ثقافة البدانة وكلَّ ما يؤدي إليها ويتقبلها، وتشوِّه مظهرنا فلم نهتم بما نلبس وكيف نلبس وسادت ثقافة الشوارع والعري والوشم وثقب الجسد، رأوا ثقافة القبح، وتحطُّم تمثال القداسة الأمريكية.

لقد ضاع شهر من أجازتنا دون أن تعلق بأذهاننا أية ذكرى لا للزمان أو المكان.!!

غـزة .. ماذا فعلنا وماذا فعلوا؟

الاثنين ١٢ يناير ٢٠٠٩

تتلقفنا مئات من العناوين تتصدَّر وسائل الإعلام المحلية والعربية والعالمية عن مذبحة القرن الحادي والعشرين في غزة لبضع آلاف من المُستضعَفين في الأرض أمام آلة حرب غاشمة تدهس النساء والأطفال والشيوخ وحتى الرجال، فجميعهم عُزَّل.. ماذا فعلنا وماذا فعلوا؟، عناوين وكُتَّاب يكتبون بلا هدف، وفضائيات تثرثر بلا ملل، قالها الأمين العام للجامعة العربية عمرو موسى بمثلٍ شعبيٍّ لخَّص ببراعةٍ منطق إسرائيل في غاراتها المتواصلة جوًّا وبرًّا وبحرًا: "اللي تعرف ديته اقتله" وأيقنت إسرائيل عبر حروبها الطويلة مع العرب أن ديتنا بخسة لا تتعدى إطلاق بعض المظاهرات والشعارات والاستنكارات التي تتقبلها بدمٍّ باردٍ، فلم تعد حتى تُطلِق أيةَ مبررات لأفعالها التدميرية وكأنها تعيد صياغة كتاب قرأه العالم من قبل وما عليه إلَّا أن يراجع الكتاب صفحة "٩" فتكرار المواقف أصابنا بالتبلُّد، وهي بهذه الدية البخسة تقطع حتى الأمل في المقاومة بعد أن اشترت مَن اشترته وضمَّت إلى حظيرتها مَن ضمته ولم يعد للمقاوم سوى سكين الجزار.!!

والكلُّ في موقع المشاهدة على هذه المجزرة الحية وكأن الناس جميعًا تحوَّلوا إلى حفنةٍ من المرضى النفسيين "الساديين" الذين يستمتعون بمشاهد الدم والجثث تتراقص أشلاء هنا وهناك في ظلِّ ظلامٍ دامسٍ، فهل حتى تتوقف الآلة الغاشمة عن حصد الأرواح البريئة من توقيع اتفاقية استسلام جديدة فماذا بقي لتسلُّمه أمام مجتمعٍ دوليٍّ صامتٍ، ومجلس أمن يحكم بلا ضوابط؟ تنديدات بلا نتائج، فماذا فعلنا وماذا فعلوا؟.

نعود إلى أحداث ٢٠٠١ الحدث الذي حوَّل العالم من عصر شبه سلام إلى عصر حروب وقمع وتفجيرات في كلِّ بقاع الأرض، لم تسلم بلدٌ في العالم من موجة الإرهاب والتطرُّف والقمع الفكري والاقتصادي والخراب الاقتصادي، وعندما نتكلم عن فلسطين وغزة تحديدًا نتكلم عن حالة العالم الإسلامي ككلٍّ، من ذلٍّ وخنوعٍ وتصديقٍ لِمَا يبثه الإعلام الأجنبي عن اختلاف آرائنا وطريقة اختلافنا، فتصرفاتنا وردود أفعالنا تَنُمُّ عن جهلٍ، فها هو أسامة بن لادن في ٢٠٠١ لم يستطع أن يوجِّه قنابله أو طائراته إلى محو رأس الأفعى "إسرائيل" بل وجَّهها إلى مدنيين ليس لهم ناقة ولا جمل... وهناك سؤال يدور دائمًا بذهني: ماذا لو حصرنا هذه القنابل كلها في قنبلةٍ واحدةٍ لمَحَوْنَا عن الخريطة إسرائيل منذ زمنٍ بعيدٍ.

للأسف نحن متفرِّقون، ننشر العنف بين المواطنين في الرياض والخبر والدمام وباكستان ومصر ولبنان والعراق بدلاً من توحيد الكلمة والصف بدون أعمال العنف وبدون توجيه الدمار الشامل إلى أيٍّ من البلدان كلمة واحدة صارمة للكيان الصهيوني إن التجأنا إلى الله حق الالتجاء وتوكلنا عليه حق التوكُّل كما في حرب اليرموك كما فعل خالد بن الوليد والمثنى وأمثالهما من المحاربين المسلمين الذين توكلوا على الله ثم توحَّدوا بكلمةٍ واحدةٍ وكانوا على قلب رجلٍ واحدٍ فاستطاعوا أن يملكوا الدنيا، ولكن بدلاً من أن ننشر كلمة السلام نبث العنف ونزداد فُرقة وكلٌّ مِنَّا يبحث على آخرٍ يُعلِّق عليه أسباب الهزيمة النفسية قبل الهزيمة العسكرية.

لننسى خلافاتنا ونضع وراءنا كلَّ اختلافنا ونوحِّد أهدافنا ونقول لإسرائيل والعالم الغربي: لن نخضع، لن نقبل بموت وقتل إخواننا في غزة وغيرها، لن نقبل بمقايضة رُفات جندي إسرائيلي بمئات الأسرى الفلسطينين، ليست المقاومة "حماس" ولتُشبِع إسرائيل دمويتها لن تنتهي المقاومة ولن يبقى الظلام طويلاً لا بد أن هناك نهار، ولن نظل حبالى بالوجع والاستكانة.

لنقف وقفةً واحدةً لترى الأجيال القادمة صنيعَ أجدادها ولترجع الكرامة للأمة العربية والإسلامية.